من صور بغـــداد

حديقـــة . . !

كان ألذ ما أتذوقه من جمال بغداد وقفة فى حديقة النادى العسكرى كل صباح! ! فكنت ترانى أحرص عليها حرص العابد المتحنث على أداء صلاته ، أو العاشق المتوجِّد على لقاء فتاته، كنت أغشى كل يوم هذا المجتلى الساحر، فى رونق الضحى أو فى متوع النهار ، فأجد الشمس قد لألأت ذوائب النخل وغوارب النهر ، وأخذت ترشق بأشعتها الظلال النَّدِّيَّة من خلال الشجر ، وبنات الهديل يبحثن كعادتهن فى عساليج التين وأغصان التوت بأرجلهن ومناقيرهن ، وهن يرجعن على التعاقب الحان الخريف ؛ والحديقةَ مطلولة النبات منضورة الزهر تتنفس بالفاغية تنفس الطفل الحالم ؛ والسكونَ مرهوبَ الجلال أنيس الوحشة يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع النبات وهو ينبت ! ؛ والنادىَ خلواً من اهله فلا تجد إلا بستانياً يعمل فى صمت ،وغلاماً يكنس فى هدوء ، وطفلين جميلين يجيئان أحياناً فيجلسان فى الشرفة أو يمشيان فى الحديقة ، فلولا نشوز خادمهما الكهل، ومنظر هندامه الزرى الشكل،لحسبتهما زهرتين من زهورها ، أو عصفورين بين طيورها ، ! فأسير فى الروضة متئد الخطى مرسَل النفس مرهف الحس ، تارة بين مماشيها ، وتارة فوق حواشيها ، فأقف عند كل شجرة، وأُحيِّ كل زهرة، وأسأل النبتة الوليدة بالأمس ماحظها اليوم من سر الحياة ونعمة الوجود ! ثم أصعد درَجة الى الشُّرفة ، وأنعم ساعة بتلك الوقفة ، فأتنسم هواء النهر ملء رئتىَّ ، وآخذ جملة المنظر بمجامع عينىَّ ،! وأى منظر يسحر اللب ويملك الطرف كهذا المنظر الفاتن ؟ ! الحديقة من ورائى تضوع بالنسيم الأريج وتروق بالرُّواء البهيج وتروع بالسكون الملْهِم ! ودجلة الخالد من أمامى تتجاوب أصداء الأمم خافتة فى لجاجه ، وتتهادى خِفافُ القوارب راقصة بين أمواجه ، وأنا بين الشجر والماء كالطائر بين الأرض والسماء ، يسبح خاطرى فى أجواء الماضى القريب والبعيد صاعدا الى فكرة ، أو هابطا على ذِكْرَة ، أو حائماً حول منظر كهذا المنظر تدفق به قلب فى قلب ، وامتزجت فيه نفْس بنفس ، وتجمعت الأحلام والأمانىُّ كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه ، وتحت سرحة فينانة من روضه !

***

لا تظنن هذه الحديقة فيحاء قد تأنقت فيها يد الطبيعة وتألق بها فن الانسان ! إنما هى مربّع من الأرض على قدر ما يتسع له فناء كبير فى منزل فخم ، يشقها ممْشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب فقسماها الى أربعة أقسام سواء ، وفى هذه الأقسام وما أُلحق بها قام دوح السدر ، وبسق سرح الكافور ، وانتظمت على جوانب مماشيها أشجار النارنج ، وانتثرت على معظم أرضها الوان قليلة من النَّور الجميل والورد العطر . فسماؤها كما ترى للشجر وارضها للزهر وجوها للعطر وهى كلها لنوع من الجاذبية يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة المفكر !

ليت شعرى ما مصدر هذا السحر الذى يشع فى عينى ويشيع فى نفسى كلما دخلت هذا المكان ؟ أهو ذاك البناء المتأكل الذى يقوم فى جنوبيه كأنه المعقل البالى أو الدير المهجور ، أم هو ذلك النهر الجميل الذى يجرى فى غربيه كأنه الزمن الدافق أو الكتاب المنشور ، أم هو ذلك المزيج العجيب من جلال القدم فى المكان وجمال الطبيعة فى البستان وعظمة الحياة الماثلة فى النهر ؟ ؟

***

ليس للروح العسكرى فى هذا المكان الشعرى مظهر ولا أثر . فما تعهده من الخشونة فى الثكنات ، والعنف فى الحركات والقسوة فى النظرات والكلمات ، يحول هنا الى ذوق فنان ورقة شاعر وهدوء فيلسوف !

. . . . . .

. . . . . .

كادت هذه الخواطر الجريئة الملحَّة تذهلنى عن حديقتى واليوم عيد من أعياد الطبيعة برزت فيه عارية من الحلل غانية عن الحلى ! والخريف فى العراق هو الربيع احترقت

غلائله الوردية فى لظى يوليو !! فهو على تجرد أرضه من الانوار والأزهار، وتحجب سمائه أحياناً بالغيم وأحيانا بالغبار، جميل البسمات عليل النسمات رفاف الاديم. فها نحن أولاء بين أعقاب الخريف وطلائع الشتاء والشمس لا تزال فى ثغر السماء ابتسامة حلوة ! تضاحك النهر الحبيب فتزيده طلاقة. وتداعب الزهر الكئيب فتكسبه أناقة، وتطالع الجو المقرور فتقبسه حرارة، وتصارع برد الموت فى أوراق النارنج وأطراف التوت فتطيل بقاءها فترة اخرى من الزمن ! وهذه اليمامات السواجع، مازلن يأوين الى أعالى الشجر يمرحن فى الضوء وينعمن بالدفء ويهتفن بالاهازيج كأنهن فى أمنة من حلول يناير وهو منهن على ليال قلائل !! وهذا دجلة السعيد يتنفس موجه بالنعيم، ويطفح غرينه بالذهب، ويقذف تياره بالغثاء والزبد، بعد مابخره القيظ فنشّ حتى انكشف ضميره، وانقطع خريره، وكاد يزحف الشبوط (١) والزورق فيه على القاع! فالبواخر تصعد صافرات فى سرعة، والاطواف (٢) تنحدر صامتات فى بطء، والقُفف (٣) تعبر موقرات فى هوادة، وقوارب الصيادين وزوارق الملاحين تتعارض وتتحاذى فى عباب النهر كأنها الخواطر الحائرة فى الفكر العميق، والطيور الصائدة تحوم على وجوه الماء باجنحتها الشهب حومان الآمال على ستر الغيب الصفيق، والبجعة (٤) الملكية تطعن فى صدور الموج بمنقارها الطويل العريض وهى تسبح آمنة فى حمى البيت العتيق، وأنفاس دجلة اللاهث من عبء القرون تتصاعد الىّ حاملة انين الامواج وخفق المجاديف وغماغم الكرخ فتختلط بتجاوب اليمام على الشجر، وتناوح الرياح بين الغصون، وحشرجة الاوراق الذاوية على الارض، فتتألف من هذه الاصوات الخافتة موسيقى روحية شجية تبعث رواقد الاحلام وتثير كوامن الآلام وتقطع بين النفس وبين وجودها الحاضر !!

***

ايه يا دجلة ياسجل الامم وراوية العصور ! لشدّ مافنيت فى خريرك ضحكات، وامتزجت بنميرك دموع، وخفيت فى ضميرك اسرار !! لقد رأيتك بالامس ضارعا قدلصق خدك بالارض حتى همّ بخوضك الخائض، وهمدت حياتك حتى اوشك أن يسكن عرقها النابض، ثم رأيتك اليوم وقد غاثك الغيث فجاشت ينابيعك الثرة بالنماء والثراء والقوة، ثم أقبلت كدأبك منذ آلاف السنين داوى الدارات صخاب اللج تعرضها مُلحا على بنيك فيعرضون عنك اعراض البطر، ويؤثرون على فيضك الميمون ودْق المطر، ثم يهينون كبرياءك يا أبا الحضارات فيجعلون مبلغ همك حمل الارماث ونقل القُفف! فهل يعجبون اذا فار غضبك فجرفت السدود وجاوزت الحدود وأصبتهم بالغرق؟ ....

أحمد حسن الزيات

نعى هين

ناعٍ سعَى بكتابٍ وَدَّ من حدبٍ علىّ مما حواه لو يواريه!
فقلتُ - لا وَجِلَتْ نفسى ولا حفلت أناعبٌ أم بشيرٌ من ألاقيه -
أدِّ الرِّسالةَ لا تُحجمْ بها جزِعاً فليس يَكْرُبُنِى من أنت ناعيه!
أثَمَّ فى الناس مَن آسَى لفُرْقتِه فأرْهَبَ الموتَ إذ تعدو عواديه؟
إنَّ الزمانَ رَمَى كبرَى مصائبه فما أُبالى جديداً من غواشيه
وكيف يخشى الردى من ليس يَكربُهُ لو أنَّهُ اليوم مَن سارتْ مَنَاعيهِ
مَضَى الذى حَطَّمتْ قلبى مَنِيَّتُهُ ومن وددتُ بروحى لو أُفَدِّيه
من عشت أمرح فى شتى مآثرِهِ مدى الحياة وفى طولَى أياديه
ومن برَغمى أَنى قد حييت وقد حواه فى الأرض جانى الجنب نابيه
ومن أُردِّدُ عمرى ذكره وله أحيا بقلبٍ ثخينِ الجرح داميه
كنزٌ من الود لم أقدُر نفاسته حتى دهانِىَ محتوم الردى فيه
أمسيت أبحث عن محض الوداد سدىً وكان لى أمس أقصى ما أُرجِّيه
أقضى مع الناس عمراً خالياً صَفِراً من الوَداد كمَن فى القفر يطويه

فخرى أبو السعود

---

(١) نوع من السمك
(٢) الاطواف كالارماث أعواد من الخشب توضع على قرب منفوخة يحمل عليها فى الماء
(٣) القفة نوع مستدير الشكل من السفن العراقية الاثرية يرجع تاريخه الى الكلدانيين
(٤) هذه البجعة تعيش فى القصر الملكى وهو واقع على النهر شمالى هذه الحديقة